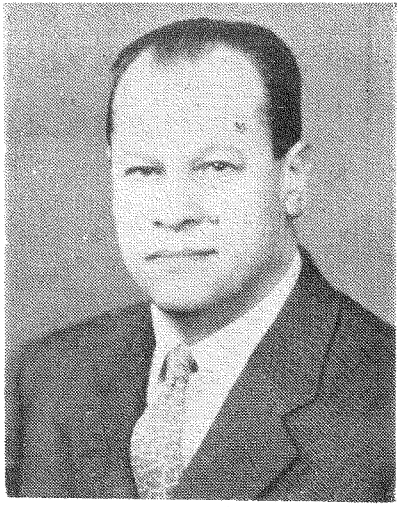

نجيب محفوظ والميتافيزيقا

بقلم سمير أحمد ندا

الفنا في حياتنا الادبيـــة ، ان نسمع ، ونقـــرأ ، ونشاهد ، مـــا يسمى بالمسرح الفكـــري ذي الابعـــاد الميتافيزيقية (١) . وهو ما يسمى بالمسرح فـــي مقعد او الدراما المقفلة Cleset drama . وقد فشل هذا اللون فـــي الاقتران بالتأدية المسرحية عندنا ، وما ذلك الا لانه اقتصر على مناقشة قضايا مجردة ، دونما الاعتماد علـــى خلفية مجتمعية انسانية فتسطحت شخوصه ، وتميعت أبعاده ، ناكصا بذلك عن المواضعات الدرامية ، فانحسرت عنـــه بالتالي اضواء المسرح (٢) ، وعلى الرغم مما حاق بهذا اللون من فشل اورثنا الخوف زمنا مـــن المعالجات الدرامية للمشكلات الميتافيزيقية ، فانه يحق لنـــا الوقوف امام الروايات التي تحمل هذا الطابع نرسل النظـــر اليها ، ونطلق الفكر فيها ، ونسرح خلالها الوجدان .

اعتكف نسب هذا اللون علـــى نجيب محفوظ ، وان كنا لا نستطيع اغفال بعض الاعمال الروائية ، لكتاب عرب آخرين ، مثل سهيل ادريس ، وغسان كنفانـــي ، وكوليت خوري ، وغادة السمان . (٣)

غير ان خلفية نجيب محفوظ ، تختلف كثيرا عـــن تلك التي يصدر عنها الآخرون ، فقد تميزت معظم اعماله ، عن الدوحة الروائية الميتافيزيقية ، الاوروبية وفي مقدمتها جويس وبروست ثم سارتر وكامن وبيكيت ويونيسكـــو ، وكذا الرواية الروسية وعلى رأسها فيدور دستويفسكي .

اما سهيل وغسان وكوليت وغـــادة ، فتجاربهم تتصل بنسب الى الفلسفة الوجودية التي سادت اوروبا بعـــد الحرب العالمية الثانية .

وقد يوجه اعتراض علـــى اقتـــران الميتافيزيقـــا بالرواية . فمصدرها ومستقرها كمـــا يقـــول المعترضون المباحث والدراسات المتخصصة . ويـــرد نجيب محفوظ على ذلك بقوله : « ان الفيلسوف يضيف جديـــدا الـــى الفلسفة الانسانية ، اما الاديب المتفلسف ، فهو الـــذي يعبر تعبيرا فنيا عما يأخذ به مـــن هذه الفلسفة . وهـــو يفيد بذلك الفلسفة . لانه يحولها الى تجربة تعيش فـــي النفس البشرية » (٤) وتمضي سيمون دي بوفوار فـــي تفسير هذا المنهج ، اذ تفرق بيـــن نوعين مـــن الفكر ، موضوعي Objectivité وذاتي Subjectivité ، تقول فـــي اولهما : « اننا لا نرضى مطالب التجربة الروائية اذا مـــا اكتفينا بأن نقنع الفكرة العقائدية المكونـــة مسبقا ، تحت اهاب خيالي متلون ان قليلا وان كثيرا ... » (٥) وبعد ان ترفض ادماج الافكار الموضوعية في العمل الروائي ، تزكي هذا الادماج بالنسبة للفكر الذاتي فتقرر : « بـــأن الرواية وحدها ، هي التي تسمح باحياء الانبثاق الاصلي للوجـــود ... ولا نعني هنا ان الكاتب يستغل علـــى صعيد ادبـــي حقائق مقررة مسبقا على الصعيد الفلسفي . بل ان مهمته ان يصور مظهرا من التجربة الميتافيزيقية ، اعنـــي طابعها الذاتي ، الفريد الدراماتيكي » (٦) تـــرى الـــى اي الفكرين ينتمي نجيب محفوظ ؟!

بعد ان اجتاز نجيب ، رحلته التاريخية فـــي ثلاثيته الفرعونية ، وبعد ان أفاد كثيرا من الفكر الانساني بيـــن يدي سلامة موسى وطه حسين والعقاد وغيرهم كما يعترف بذلك ، شرع في اقتحام الواقـــع ومواجهـــة شخوصه ، ومعالجة مواقفها ، متزودا بهـــذا الرصيد المتنافر مـــن الغيبيات والفكر الليبرالي ، ثـــم مـــن المنطق العلمي والفكر الاشتراكي . وقد تجلى ذلك في « القاهرة الجديـــدة » . ومهما بدت لنا الارضية الواقعية التي صورها في هـــذه الرواية ، متماسكة ، للوهلة الاولى ، فـــان النظرة المتأنية ،

---

١ ـ يرجع الاصل الاشتقاقي لتعبير الميتافيزيقا الـــى حكمتين يونانيتين هما : Meta اي (بعد) و Physique وتعنـــي الطبيعـــة . وينسب هذا التعبير الى ارسطو ، مع انه لـــم يستخدمه فيما كتب . ويرجح ان اول من اطلقها على مبحث مـــن مباحث ارسطـــو ، كـــان اندرونيقوس الذي صنف اعماله فيما بعد فشاء ان يميز بين كتـــاب الطبيعة Physique عن غيره من الموضوعات التي تناولت مـــا وراء الطبيعة وما تنطوي عليه من مشكلات دعاها ارسطو : (ابـــو ريـــا) Aporia وما تحتويه كذلك من قيـــم ، واسباب معرفة ، وعلـــل للوجود . وقد انقلبت الميتافيزيقا رأسا على عقب بمقولة الوجوديين ، من ان الوجود سابق على الماهية وكان العكس من قبل .

٢ ـ على رأس كتاب هذا اللون المسرحي ، الاديب الكبيـــر توفيق الحكيم ومن اشهر أعماله : اهل الكهف ـ شهرزاد ـ بيجماليون .

٣ ـ من ابرز رواياتهم في هذا الصدد : اصابعنـــا التـــي تحترق ـ رجالي في الشمس ـ ايام معه ـ لا بحر في بيروت .

٤ ـ حديث بمجلة الاذاعة .

٥ ، ٦ ـ الوجودية وحكمة الشعوب . تأليف سيمون دي بوفوار . ترجمة جورج طرابيشي . دار الآداب ـ صفحة ٧٩ وما بعدها .

تكشف عن خلل في بنيتها ، يتجلى اوضح ما يكون ، فيما عرضه لنا من شخوص ، نضبت حيويتها ، وفعاليتها الانسانية ، على مستوى التصوير الدراسي ، فهي لا تعدو ان تكون مجرد اصوات ، لافكار مسبقة ، تحتدم في ذهن المؤلف ، ولانه تقصد ، في المقام الاول ، التعبير عن تلك الافكار ، فقد تهالك البناء الروائي ، في «القاهرة الجديدة» لانه لم يرض مطالب التجربة الروائية ، كما تذهب سيمون دي بوفوار . ومثل علي طه ومحجوب عبد الدايم ، ومأمون رضوان ، كمثل مرنوش وشلينا ، ويمليخا في « أهل الكهف » . ذلك انهم ، وان كانوا يناقشون قضايا ميتافيزيقية ، فان حرارة التجربة الانسانية تعوزهم الى حد كبير . واذا كانت « أهل الكهف » تعتبر ، تأصيلا وتقييما لفن توفيق الحكيم حتى اليوم . فان « القاهرة الجديدة » كانت ارهاصا بتطور عميق الاثر بالغ الخطورة في أدب نجيب محفوظ . حيث نلتقي به فيما بعد وقد طرح عن قلمه تدريجيا مختلف الفكر الموضوعية ، ليحقق لشخوصه دينامية موصولة بعالم سمته الحركة والتغيير . شخوص لم تكتف بالافكار الموضوعية وانما سعت الى التجربة الذاتية وما يتمخض عنها من فكر .

وتبرز من بين هذه الشخوص ، فيما بعد ، شخصية كمال عبد الجواد ، ومهما قيل في امر تفسيرها حتى من قبل المؤلف نفسه (١) ، فنحن لا نراه الا مندفعا في خوض غمار تجربة البحث عن الحقيقة : « ليست الحقيقة قاسية ، ولكن الانفلات من الجهل مؤلم . اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الانفاس . ارض بالالم حتى تخلق نفسك من جديد ... » (٢) وفي نظرية دارون عن التطور ، يتلمس طوق نجاة في محيط الشكوك ، ويعلو صوت السيد :

ـ وآدم ابو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟

ـ دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن سيدنا آدم .

هتف الرجل غاضبا :

ـ لقد كفر دارون ووقع في حبائل الشيطان . اذا كان أصل الانسان قردا او اي حيوان ، فلم يكن آدم أبا للبشر ، هذا هو الكفر بعينه ، هذا هو الاجتراء على مقام الله وجلاله . (٣)

ويتصل الحوار بعد ذلك ويحمي وطيسه ، فيصرخ السيد :

ـ الم تجد غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيها ؟ « لماذا كتب مقالته ، لقد تردد طويلا قبل ان يرسلها الى المجلة ، ولكن كان كأنما ينعي الى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طول العامين الماضيين امام عواصف الشك التي ارسلها المعري والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية ، فكانت القاضية ، على انني لست كافرا ، لا زلت أومن بالله ، اما الدين ، ذهب ، كما ذهبت رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة وكما ذهبت ثقتي بنفسي » (١) .

ان هذه البلبلة ، اقرب الى ما نسميه اليوم بالقلق الوجودي ، الذي يسبق لحظة التخلي (الهجر) ، هي معاناة رهيبة تشتعل بالقلب والفكر معا ، حين يبدأ الانسان في الانشقاق عن اللامرئي ومعايشة العالم المحس ، حتى لو كان هذا العالم تافها ، وهكذا في تطور تدريجي يصل كمال الى ذروة الهجر : « لقد تعذب كثيرا ، ولكنه لن يقبل ان يفتح قلبه من جديد للاساطير والخرافات التي طهره منها العلم . كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث بي الاوهام بعد اليوم ، النور ، النور ، أبونا آدم ، لا أب لي ، ليكن أبي قردا ان شاءت الحقيقة » (١) ثم يوافينا صوت انيس زكي بعد مضي عشر سنوات : «اصل المتاعب مهارة قرد ، تعلم كيف يسير على قدميه ، فحرر يديه ، وهبط من جنة القرود الى ارض الغابة . وقالوا له عد الى الاشجار والا اطبقت عليك الوحوش . فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم في حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له . » (٢) ثم يسقط انيس ، في شباك غيبوبة المخدر ، ليصحو عمر الحمزاوي ، على عتاب الواقع هامسا :

ـ ان كنت تريدني حقا فلم هجرتني ؟ (٣)

لقد آثر نجيب محفوظ نفسه ، ان يهجر الواقع ، بعد ان تجول بنا في خان الخليلي مع احمد عاكف ، وفي زقاق المدق مع حميدة ، ثم في شبرا بصحبة نفيسة، لكن هجرته تلك لم تكن عقيمة كسياحة عمر الحمزاوي وانيس زكي ، وانما اعتمدت على ركيزة من المنطق ، وومضة من النبوة ، كتلك التي ينسبها فورستر الى كل من لورنس ودوستويفسكي وجويس (٤) .

فاذا سلمنا بالمبررات التاريخية والواقعية التي تشكل خلفية « القاهرة الجديدة » وكذلك الثلاثية ـ على اختلافهما في الصياغة الدراماتيكية ، كما قررنا ذلك سلفا ـ ثم استجبنا لضياع محجوب عبد الدايم ، والحاد علي طه ، في الرواية الاولى ، ثم قلق كمال عبد الجواد ومن بعد الحاد احمد شوكت ابن شقيقته خديجة ، في الرواية الثانية ، اذا استجبنا لتلك المبررات التاريخية والواقعية من خلال الصياغة الروائية لاحوال مصر منذ مطلع القرن العشرين الى ما بعد الحرب العالمية الثانية . فاننا نقف حيارى ـ للحظة ـ ازاء ضياع سعيد مهران ، وصابر الرحيمي ، وعمر الحمزاوي وانيس زكي ، والمقومات التاريخية غيرها بالامس ، والمجتمع غير المجتمع ، ودوافع

١ ـ يقول نجيب : انا كمال عبد الجواد في الثلاثية ـ حديث بمجلة الاذاعة العدد ٢ ، ٣ ، ٤ ـ قصر الشوق صفحة ٣٢٥ وما بعدها.

١ ـ قصر الشوق ـ الموضع السابق ذكره .
٢ ـ ثرثرة فوق النيل صفحة ٢٠١ .
٣ ـ الشحاذ ـ صفحة ١٩١ .
٤ ـ Asbecto of the Novel. A. M. Forester

الازمة لدى الابطال الاول ، انتفت ولو نظريا .. فكان من المفروض ان نلتقي بنماذج بشرية اخرى فيما انتجه نجيب بعد الثلاثية . لكن الرؤيا النافذة والنبوة الخالصة ، لدى الفنان الى حقائق الامور ، تكشف لنا خبايا الازمة ، بل وتفاقمها عن ذي قبل . خاب سعي علي طه واحمد شوكت ورفيق جهادهما عثمان خليل ، قال له عمر الحمزاوي :

ـ على اي حال قامت الثورة وهي تشق طريقها بعقلية اشتراكية (١) .

فحدجه بنظرة متفحصة طويلة ، حتى قرأ فيها معاني لم تسره ، ويضطر خالد عزوز الى تحديد معالم تلك النظرة ، فيقول :

ـ كل قلم يكتب عن الاشتراكية ، على حين تحلم اكثرية الكاتبين بالاقتناء ، والاثراء ، وليالي الانس في المعمورة (٢) .

تلك هي مطامح رؤوف علوان الماركسي القديم ، قال لتلميذه سعيد مهران وهو يحاوره :

ـ يا عم سعيد ، زال تماما جميع ما كان ينغص علينا صفو الحياة .

فقال سعيد من فم مكتظ :

ـ طالما هزتنا الانباء في السجن ، من كان يحلم بشيء كهذا ؟

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمة :

ـ لا حرب الآن .

ـ لتكن هدنة ! ولكل جهاد ميدان (٣) .

وتخرق نصوص الهدنة المترفة ذات يوم ، وتعلن الحرب من جديد فيلوذ عثمان خليل المتشبث باشتراكيته رغم عذاب السجون ، برفيق جهاده الاول عمر الحمزاوي في منفاه الروحي .

ـ أصغ الي يا عمر ، اني في موقف خطير ، انهم يبحثون عني في كل مكان ، واذا القوا القبض علي هلكت (٤) ...

وخرج شبح الى الشرفة الارضية المتصلة بالحديقة وزعق :

ـ انتهى ، انتهى ، قبض عليه، وانتهى كل شيء (١) .

استسلم عثمان خليل لجلاديه ، لتموت مبادئه في سعيد مهران ، الذي اخلد للموت بلا مبالاة ... بلا مبالاة . لما ان تأكد يقينه بعبث الواقع الموهوم لدى حنظل (٢) .

ذلك هو التبرير الفني لعذابات الضياع التي تمزق ابطال ما بعد الثلاثية ، ويهرع الجميع الى السماء ، الى منطقة انعدام الوزن ، الى اعمق اعماق الكون ، الى ملايين السنين الضوئية ، الى اللاشيء ، وتصعد لوعتهم استغاثة محمومة :

ـ يا أي شيء أفعل شيئا ، فقد طحفنا اللاشيء (٣) .

هو سعيد الرحيمي ، عبر طريق الشوك ، الذي ادمى وعي صابر ، فلم يحظ بما كان يأمله من ابيه ليتحقق الامن والعدل والسلام ، بل ان الرحيمي يمعن في السخرية من ابنه فلا يكتفي بالتخلي عنه وانما راح يلهو فوق الكرة (٤) . وتتواصل حلقات المغامرة الروحية الكبرى ، فيسقط عمر الحمزاوي شبه مجنون (٥) ، فقد أضاع حياته من أجل خرافة اسمها زعبلاوي (٦) ، وصفه البعض بأنه صاحب معجزات ، وقال عنه آخرون، انه قاتل خطير ، فيطارده الضابط محسن عبد الباري ، الذي لا يلبث ان يسقط صريعا بيد ذلك القاتل المجهول (٧) .

لكن القرد يتحرك من جديد ، هذا ما يؤكده لنا عمر الحمزاوي . مجرد حركة ، وتثير هذه الحركة الهواجس في خمارة القط الاسود بحارة الجبلاوي (٨) ، تتصاعد الهواجس الى مرتبة من الجدل الحاد في احد فنادقها (ميرامار) ولكن بلا جدوى .

ويرجع الكون اصداء انين الحارة القديمة ، من جديد ، أنين غريب ، لحن جنائزي رهيب ، ألف بين نباح الكلاب ، ومواء القطط ، وطرقعةالصفعات على الاقفية ، وعواء الجنس ، وتهاويم السطل ، ونحيب الربابة عندما ينزوي الليل على الحارة ، فينشط الفتوات الى تدبير المؤامرات ، ويسقط الشهداء بليل الخديعة. وحنش ، أهل المسحوقين ، وقدمات الجبلاوي ومن بعده عرض، والحارة لما تزل تنتظر (٩) .. ومعها ننتظر لنعود مرة أخرى الى منطلق مغامرة انسان نجيب محفوظ الميتافيزيقية ونمضي واياه في عوالم المجهول ، مهتدين بكشوف الرواد الاوائل في هذا السبيل ...

القاهرة

سمير احمد ندا

---

١ ـ الشحاذ ـ صفحة ١٥٢ .
٢ ـ ثرثرة فوق النيل ـ صفحة ٥٦ .
٣ ـ اللص والكلاب ـ صفحة ٤١ ، ٤٢ .
٤ ـ الشحاذ ـ صفحة ١٨٤ .

---

١ ـ الشحاذ ـ صفحة ١٨٨ .
٢ ـ حنظل : بطل قصة قصيرة من مجموعة دنيا الله صفحة ٢١٧
٣ ـ ثرثرة فوق النيل صفحة ٣٨ . ولقد قال لي الاستاذ نجيب هذه الجملة على هذا النحو : يا اي شيء ، أ فعل اي شيء ، الخ ، لكنني أثبت ما بالرواية .
٤ ـ الطريق .
٥ ـ عمر الحمزاوي بطل رواية الشحاذ . وسوف يتردد اسمه كثيرا في رسالتنا هذه .
٦ ـ زعبلاوي قصة قصيرة من مجموعة دنيا الله صفحة ١٥٧ .
٧ ـ محسن عبد الباري بطل قصة ضد مجهول من نفس المجموعة السابقة صفحة ١١٣ .
٨ ـ خمارة القط الاسود ، قصة من المجموعة التي تحمل هذا الاسم ، واما حارة الجبلاوي فهي مسرح رواية نجيب محفوظ الخطيرة اولاد حارتنا .
٩ ـ الفتوات وحنش والجبلاوي وعرفة هم بعض ابطال رواية اولاد حارتنا . التي اصدرتها دار الآداب عام ١٩٦٧ .